

## مداخل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه. ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين...

وهذه أحاديث عن سورة الكهف..

ولعل أول ما يسبق إلى الذهن عند ذكر هذه السورة. ما فيها من أنباء الغيب والمعجزات:

- فتية من القرون السابقة، ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا. ناموا دون أن يقصدوا النوم الطويل، واستيقظوا لا يدرون إن كان النوم يوماً أو بعض يوم.

- قائد حاكم طاف المشرق والمغرب شارك في إقامة العدل وفي تصوير الفكرة عملاً ملموساً، وحمى قوما بعرق الجبابة وجهد السواعد، ودقة التخطيط وأقام بينهم وبين المفسدين سدا يدعمه حديد ونحاس.

- وقصة بين موسى عليه السلام وهو نبي من أولى العزم وبين رجل صالح آتاه الله من لدنه علماً ظهر من وراء ستر الغيب وكانت له مع موسى صحبة من ثلاث مراحل ثم توارى وراء ستر الغيب لا نعرف يقينا من أين جاء ولا إلى أين ذهب وما يعلم جنود ربك إلا هو.

- وقصة صاحب الجنتين، وقد استطال بماله وزرعه وثماره، على صاحبه المؤمن وتسير القصة ويعلو الإيمان بصاحبه، ويعصف الجحود والغرور بالجنتين، فأصبح ثمرها حصيда كأن لم تغن بالأمس.

هذه هي المعالم الرئيسية الأربعة في السورة، التي كثر الحديث عما فيها من أنباء الغيب والإعجاز.

ولكن جوانب أخرى غير أحداث السورة تستوقف النظر، هي العبر من القصص، ومنهج العرض التاريخي، وتكامل القصص الأربع، دون أخذها فرادى. وتكامل مشاهد كل منها دون اقتطاع مشهد عن السياق العام، ثم وضع المشاهد

والقصص جميعاً في نسق واحد يضم مدخل السورة وخواتيمها، والروابط بين مراحلها تمهيداً وتعقيبا بحيث تبدو السورة في وحدتها المتكاملة داخلياً، ومع السياق التاريخي والقرآني للعهد المكي ثم مع الأهداف الدائمة والباقية، التي تثير لنا السبيل منهجياً وعملياً في حياتنا. وبهذا نجتمع في الدراسة بين النظريتين الداخلية والخارجية. ولما كان القرآن الكريم مصدر إلهام دائم للمسلمين على امتداد الزمان والمكان وكان لكل عصر مشكلاته الكبرى التي تقابله مع الاشتراك في قضايا إنسانية مستمرة كان علينا أن نقرأ القرآن: أولاً على مستوى الفهم لألفاظه ومعانيه دون أن نحمل الآيات فوق ما تحتمل مستهدين في فهم القرآن بالقرآن ذاته وبالسنة النبوية وما جاء عن سلفنا الصالحين، ثم نقرؤه في ضوء مشكلاتنا التي نحيها نلتمس عنده الهدى فيما نستقبل من مسؤوليات الحياة.

وإذا كان الغالب في القراءة الأولى عنصر الثبات والاستمرار، وهذا هو التفسير المأثور - فأن الغالب والمقصود في القراءة الثابتة هو عنصر التغيير وهذا هو التفسير المعقول. أي أن نلتمس من القرآن النور فيما نواجه من مشكلات الحياة، وهي تجمع بين الاستمرار والتغيير - أي بين العقل والنقل - هذا بعد أن جمعت بين النظريتين الداخلية والخارجية وهذه العناصر الأربعة أساسية في أي دراسة تاريخية.

ولننظر الآن إلى السورة في سياقها التاريخي:

سورة الكهف مكية وهي الثامنة والستون في ترتيب النزول: قبلها الغاشية وبعدها النحل.

وقد ذكر محمد بن اسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبارهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال، فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل والإ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما

كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يامعشر قريش قد جنناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ! أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم غدا عما ما سألتكم ولم يستثن [أى لم يقل إن شاء الله] فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له وحياً ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل. ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

ندع الآن أمر الروح، وتفسير قوله تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي والمقصود من كلمة "أمر" هنا ثم التعقيب عليها بقوله تعالى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

ونركز القول على تحدى قريش الرسول عليه الصلاة والسلام والاستعانة عليه بأحبار اليهود في المدينة. ولقد كانت لهم بعد هذا مواقف ومواقف مع الإسلام: رسالة ورسولاً ومجتمعاً.

كان التحدى في الأسئلة الثلاثة عملياً، كان تحدياً في المعرفة وكان اليهود على يقين أن علم هذه الأسئلة الثلاثة بعيد عن دائرة النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن يأتيه خبر السماء.

في هذا التحدى جانب إيجابى قوى هو يقين اليهود أن أهل مكة مسلمهم وغير مسلمهم بعيدون عن هذا العلم ويقين قريش أن هذه معرفة جديدة عليهم ليست من أساطير الأقدمين وملاحم التاريخ التى وصلت إليهم أطرافها وبهذا هى جديدة على الرسول بيقين. و يقودنا هذا إلى صورة تاريخية للعهد المكي أكثر تفصيلاً.

ففي أي مرحلة كان هذا التحدي؟ ما علاقته بجوانب التحدي الأخرى؟

نستطيع أن نقسم العهد المكي إلى مراحل متميزة متصلة:

• المرحلة الأولى: من البعثة النبوية إلى السنة الثالثة، وهي مرحلة الإسراء بالدعوة

• المرحلة الثانية: إعلان الدعوة امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) وما تلاها من محاولات فتنة المسلمين عن دينهم، وعدوان أقوياء كل قبيلة على من فيها من المستضعفين الذين أسلموا، وجهود أغنياء المسلمين كأبي بكر في شراء هؤلاء وإعتاقهم لله تعالى.. حتى أذن الرسول ﷺ للقادرين من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلاً: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. وكان هذا في العام الخامس للبعثة النبوية وكان من المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت المصطفى ﷺ والزيبر بن العوام وعبد الرحمن بن عوف و جعفر بن أبي طالب رضى الله عنهم وأقاموا بالحبشة عشر سنين.

• المرحلة الثالثة: مرحلة الفتنة العامة التي استمرت من العام السابع إلى العاشر وهي مرحلة الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضته قريش على المسلمين وألجأتهم إلى شعب بنى هاشم.

• المرحلة الرابعة: ومطلعها انتهاء الحصار الاقتصادي وموت أبي طالب وخديجة رضى الله عنهما وخروج الرسول ﷺ إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى ثم الإسراء والمعراج. وكان إيذاناً بفتح أبواب المستقبل.. فآمن أوائل الأنصار في موسم الحج عندما عرض عليهم الرسول الإسلام.. واستمرت هذه المرحلة الى الهجرة النبوية في العام الثالث عشر للبعثة النبوية..

من الناحية التاريخية، المراحل الأربع متصلة، والمعاناة مستمرة وإن تميزت كل مرحلة بضيوف من المحنة.

وما وجدت قريش وسيلة من وسائل الايذاء والامتحان إلا سلكتها مع المسلمين: الأذى البدني. المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية. التشكيك في الرسالة والرسول، ورميه بالجنون والسحر وتحديه أن يأتي بمعلومات أو يأتي

بمعجزات، ثم أخيراً تديبير قتله وكانت نجاته بالهجرة من مكة إلى المدينة واتخاذها قاعدة للإسلام ونشر دعوته في العالمين.

وواضح من هذا التقسيم الرباعي أن تكون قصة التحدى في المرحلة الثانية من هذه المراحل الأربع وأقرب إلى خواتيمها من بداياتها.

## ٢ - ترتيب سورة الكهف في القرآن

من الموضوعات التي عنى بها المفسرون: ترتيب سور القرآن وترتيب الآيات في السورة الواحدة.

وبين يدي عند إعداد هذا الحديث كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور) للإمام السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة هجرية. ذلك العالم الجليل الذي إذا وزعت كتبه على سنوات عمره وأيامها، لرأينا أمامنا صورة من روائع العكوف على العلم والتفرغ له وتوفيق الله.. عاش السيوطي اثنين وستين عاما وتبلغ مؤلفاته ثلاثمائة ذكرها في مقدمة كتابه "حسن المحاضرة" .. امتدت إلى التفسير والحديث والقراءات و الفقه والتراجم و النحو والآداب.. فإذا أضيف إلى ذلك ما كتبه بعد "حسن المحاضرة" ارتفعت كتبه إلى أكثر من أربعمائة..

أقول هذه الكلمة عن السيوطي، ونحب سبيل سورة الكهف لنرى كم أحب أبائنا كتاب الله، وعكفوا عليه، وأناروا به القلوب والعقول والحياة. وكانوا صورة حية لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي يرويه الترمذي عن ابن عباس قال:

قال رجل: يا رسول الله! أي الأعمال أحب إلى الله قال الحال المرتحل. قال: وما الحال المرتحل؟ قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل<sup>(١)</sup>.

نعود إلى كتاب السيوطي وقد نشره وحققه عبد القادر عطا بعنوان "أسرار ترتيب القرآن"<sup>(٢)</sup>، لنقرأ فيه ما قاله السيوطي عند ترتيب هذه السورة في المصحف ونحن نعرف أنها الثامنة عشرة وهي بعد سورة الإسراء، وتليها سورة مريم.

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٩: ٣٣٧ حديث رقم ٦٢٧٦.

(٢) طبعة دار الأعتصام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.